

## أعلام المعتزلة

مرحلة البدايات: واصل بن عطاء (٨٠-١٣١هـ):

أبو حذيفة واصل بن عطاء، مؤسس الاعتزال، المعروف بالغرّال، يقول ابن خلكان: كان واصل أحد الأعاجيب، وذلك أنه كان أثلخ، قبيح اللثغة في الرّاء، فكان يخلص كلامه من الرّاء ولا يفضن لذلك، لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه، ففي ذلك يقول أبو الطروق، يمدحه بإطالة الخطب واجتنابه الرّاء على كثرة ترددها في الكلام، حتى كأنها ليست فيه.

إن واصل هو أول من أظهر المنزلة بين المنزلتين، لأنّ الناس كانوا في أسماء أهل الكبائر من أهل الصلاة على أقوال: كانت الخوارج تسميهم بالكفر والشرك، والمرجئة تسميهم بالإيمان، وكان الحسن وأصحابه يسمونهم بالانفاق.

وشاع في عصره النزاع في مسألة الجبر والاختيار، فذهب إلى القول بأن الإنسان هو الذي يصنع أفعاله مختاراً بدون أن يكون لله رأي في ذلك، وقد أخذ القول بالقدر عن معبد الجهني، وغيلان الدمشقي كما يرى ذلك بعض المؤلّفين في الفرق والمعتقدات.

مرحلة التأسيس: أبو الهذيل العلاف

كان لأبي الهذيل آراء يميز بها عن سائر المعتزلة، وكان أتباعه في هذه الآراء يسمون «الهذيلية»، من ذلك ما أسلفنا الإشارة إليه من إنكاره لصفات الله في الحقيقة، فهو يقول: إن الله عالم بعلم وعلمه ذاته، وقادر بقدره هي ذاته، وهكذا يريد أن ليس شيء في الحقيقة غير الذات، وصفة العلم والقدره ونحوهما ليست إلا مظاهر لذاته، فمظاهر الخلق في نظرنا تدل على قدرته، فنقول إذ ذاك إنه قادر، وتدل على العلم، فنقول إنه عالم، وفي الحقيقة لا شيء غير ذاته.

كان يرى أن للعالم كلاً وجميعاً، ونهاية، وغاية، لأنه محدث، والمحدث مخالف للقديم، فإذا كان القديم ليست له غاية ولا نهاية، وجب أن يكون للمحدث غاية ونهاية، ولأنّ المحدثات ذات أبعاد، وما كان كذلك فواجب أن يكون له كل ونهاية، فلما اعترض عليه — في قوله هذا — بنعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار، وأنهما لا نهاية لهما، لم ير

هذا الرأي. وقال: إني لا أفهم حركات لا تنتهي. ولذلك يجب أن نقول إن حركات أهل الجنة وأهل النار تنقطع. وأنهم يصيرون إلى سكون دائم خموداً. وتجتمع اللذات في ذلك السكون لأهل الجنة. وتجتمع الآلام في ذلك السكون لأهل النار.

ومن المسائل التي اشتهر بها أبو الهذيل رأيه في «إرادة الله». وهي مسألة من المسائل المشككة في الصفات. ذلك أن الإرادة التي نضمها في الإنسان صفة من وظيفتها ترجيح أحد طرفي المقذور. فإذا أردت القراءة في كتاب. فقد رجحت القراءة على عدم القراءة. وكانت القراءة وعدمها مقдорين لي. وقد رجحت القراءة لحكمي بأن المصلحة في القراءة تفوق المصلحة في عدمها. فما معنى الإرادة إذا نسبت إلى الله وقد وردت النصوص بنسبتها إليه تعالى؟

لو فسرت الإرادة في الله كما فسرت في الإنسان لاستحال ذلك. لأن ترجيح الشيء وترتيب الفعل عليه طارئ بعد أن لم يكن. وطروء شيء على الله بعد أن لم يكن محال. وهذا بعينه هو الإشكال الذي أثير في مسألة العلم والقدرة. فكان أبو الهذيل يرى في إرادة الله أنها ضرب من ضروب العلم. وله على ذلك شرح طويل.

وكان يرى أن الإنسان مكلف بالأشياء التي يستطيع العقل التمييز فيها بين الخير والشر ولو لم تصل إليه أوامر الشرع. وإن قصر في ذلك استوجب العقوبة، فيجب عليه الصدق والعدل والإعراض عن الكذب والجور ولو لم يصله شرع في ذلك. لأن العقل يستطيع أن يدرك حسنها وقبحها لما فيها من صفات تجعلها حسنة أو قبيحة.

وقد اقتبس أبو الهذيل مسائل كثيرة من الفلسفة اليونانية. طبيعية والهيبة. وربما كان هو أول من أثارها في الإسلام. وتبعه الناس بعد. ينظرون فيها ويوسعونها ويبدون فيها آراءهم المختلفة. فقد أثار الكلام في الجسم ما هو؟ فكان أبو الهذيل يقول: إن الجسم ما له يمين وشمال. وظهر وبطن. وأعلى وأسفل. وأقل ما يكون الجسم ستة أجزاء. فتكلم في الجوهر الفرد. أو الجزء الذي لا يتجزأ ما هو؟ وهل له جميع صفات الجسم؟ فكان يرى أنه يتحرك ويسكن ويماس. ولكن لا يحتمل اللون والطعم والرائحة ولا شيئاً من الأعراض غير ما ذكرنا. فإذا اجتمعت ستة جواهر وكونت جسمنا استطاعت إذا أن تتحمل بقية الأعراض.

وبحث في أن جوهر العالم واحد (يعني العنصر الذي يبني منه العالم) أو جواهر مختلفة — وبحث في حركة الجسم هل تنقسم على عدد أجزائه. وكذلك اللون. فكان يرى أن الحركة تنقسم. فما حل في جزء الجسم من الحركة غير ما حل في جزء آخر. وكذلك اللون. وأن الحركة تنقسم بالزمان. فما وجد منها في زمان غير ما وجد منها في زمان آخر. إلخ. وبحث في رؤية الأجسام والأعراض. فكان يذهب إلى أنهما يريان.

فالإنسان يرى الجسم ويرى الحركة والسكون والألوان والقيام والقيود. كما كان يذهب إلى أن الإنسان يلمس الحركة والسكون بلمسه للشيء المتحرك والساكن.

وبحث في الكمون. فكان يرى أن الزيت كامن في الزيتون، والدهن كامن في السمسم، والنار كامنة في الحجر ونحو ذلك.

وبحث في علة الخلق. فقال: إنما خلق الخلق لمنفعتهم. ولولا ذلك لكان لا داعي لخلقهم. لأن من خلق ما لا ينتفع به، ولا يزيل بخلقه ضررا، ولا ينتفع به غيره فهو عابث. وبحث في حواس الإنسان وإدراكه وإرادته وغير ذلك مما تطول حكايته.

فترى من هذا أنه كان من أسبق الناس في الإسلام في تفتيح موضوعات لم تثر بينهم من قبل. وهذه الموضوعات قد بحثت في الفلسفة اليونانية، فأخذها وكون له فيها رأيا عرضه على المسلمين. وكثير من هذه الموضوعات لا شأن لها بالاعتزال. ولا بالمسائل الدينية، لأنها مسائل طبيعية بحتة.

ويظهر أن مسلك العالم في ذلك الزمان لم يكن تفكيراً منظماً يرتب به أصول المسائل، وينتقل من أصل إلى أصل، يربط بينهما رباط منطقي، ثم يستنتج الفروع من الأصول على نظام ثابت، بل كانت هناك آراء مبعثرة يتلقفها هؤلاء المعتزلة، ويضعون كل مسألة تحت البحث والجدل، أو بعبارة أخرى يثيرون حولها «الكلام». وهذا الكلام يجري من شيء إلى شيء. وكثيراً ما يثير الجدل مسائل ليس يربط بعضها ببعض رباط — ومن أجل ذلك حاولت في أبي الهذيل العلاف أن أنقل كل ما روي عنه فيما بين يدي من كتب الكلام، وفكرت في أن أولف منها نظاماً مسلسلاً، وأصولاً أساسية وضعها وفرع منها فلم أستطع، وكذلك كان شأني مع غيره من المعتزلة، وهذا يرجع إلى أن المسائل التي كانوا يثيرونها كانت تخضع للفرص والاتفاق وتشعب الجدل أكثر من خضوعها للنظام ووضع الأصول، وكان هذا طبيعياً، فالمعتزلة أول من تعرض لهذا الضرب من البحث. وكل بحث في فرع من فروع العلم يأتي أولاً مبعثراً ثم يدخله النظام والترتيب. فكان عملهم إرهاباً لعمل فلسفي منظم يأتي بعد، يقوم به أمثال الكندي والفارابي وابن سينا.